الفصل الأول

عصر صفيّ الدّين الحلّي

١ ـ الحياة السياسية

ظلت الدولة العباسية قوية بخلفائها الأقوياء ، وبرجالها الحازمين الأماجد ، زهاء قرنين ، حكمت فيهما الأمصار التابعة لها ، ولوّنتها ـ فى جملتها ـ بألوانها السياسية والأدبية والعلمية .

ثم غلبت عليها العناصر غير العربية ، من فارسية وتركية . ومن ثم دخلت فى أطوار خضوع واستكانة وقلق وضعف . ونشأت فى رقعتها وحولها ، دويلات متتابعة ، غلبها بعضها على سلطانها واحتلوا بغداد ، وذلك كدولة البويهيين الديالمة ، وكدولة السلاجقة الأتراك من بعدها .

وظل هذا حالها ، فى جملتها ، حتى دهمها التتار بجيوشهم الكثيفة ، فدخلوا بغداد ، وأزالوا غضْراءها ، وقتلوا خليفتها وآلافاً مؤلفة من خواصها وعوامها وأبادوا ذخائرها العلمية والأدبية النفيسة ، وطووا بساط حياتها وورثوا ملكها الواسع الكبير وذلك عام ٦٥٦ هـ .

ومن هنا بدأ عصر جديد فى السياسة ، وعصر جديد فى تاريخ العلوم والآداب الإسلامية ، وهو العصر التركى .

* * *

والدولة السلجوقية هى إحدى الدول التى نشأت فى رقعة الدولة العباسية وحولها .

والسلاجقة من الجنس التركى ، ومنازلهم الأولى أواسط آسيا وبلاد التركستان على مقربة من بخارى .

وجدهم الأول الذى ينتسبون إليه، هو سلجوق بن الأمير يَقَاق[١] . ورُوى أن سلجوق لما بلغ أشدّه فوّض إليه أحد ملوك التركستان وهو « يبغو » إمارة جيشه ، وكان صاحب رأى وتدبير ، فعظم نفوذه حتى خشيته زوجة الملك على زوجها، فأوعزت إليه بأن يبطش به . وأحسّ سلجوق بما يُدبر له فخشى على نفسه وفرّ إلى قرب بخارى ومعه قومه وأتباعه ، فنزلوا هناك بمرج دندانقان . وأسلم سلجوق وتابعه فى ذلك رجاله ، ليكون لهم بالإسلام قوة وعصمة .

وكان السلاچقة كثيرى العدد والعدة ، ذوى أنفة وكبرياء ، يتأبون على العبودية ولا يدخلون فى طاعة سلطان . وكانوا يعيشون أحراراً كعيشة القبائل ، ينتجعون[٢] المراعى ويرتادون المكالئ[٣] ، ويفرّون أمام عدوهم القاهر لائذين بالمفاوز متحصنين بكثبان الرمال . وقد نشطوا فى القرن الرابع الهجرى ، ثم برز إلى زعامتهم وقيادتهم ميكائيل بن سلجوق الذى صار صاحب الكلمة النافذة والرأى المطاع فيهم .

وكانت دولة سُبكتكين ملوك بَلْخ وغَزْنة ونيسابور وخراسان والهند ، قد برزت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى المذكور . وبين ملوكها يمين الدولة محمود بن سُبكتكين .

وحاول ملوك هذه الدولة إخضاع السلجوقيين لطاعتهم ، فاستعصى عليهم أمرهم . ثم وقعت بين الفريقين وقائع وحوادث جمة ، لقى السلاچقة من ورائها أهوالاً كثيرة . واستطاع الملك يمين الدولة محمود أن ينقلهم إلى جهات خراسان .

غير أن خطر السلاچقة زاد واستشرى ، فأخذوا ينازعون آل سُبكتكين ملكهم ، ومضوا يمدون سلطانهم ورقعة ملكهم فيما حولهم من البلاد مثل طُوس ونيسابور وغيرهما . وبرز من بينهم ملوك عظماء نشروا نفوذهم ، ومدوا دولتهم من

---

(١) يقاق معناه بالتركية « القوس من الحديد » . والأمير يقاق كان صاحب رأى وتدبير لدى أحد ملوك التركستان . وكان قد أسلم كذلك — راجع كتاب أخبار الدولة السلجوقية لصدر الدين ابن الحسن .

(٢) انتجع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه فى مواضعه .

(٣) المكالئ : أمكنة العشب .

أواسط آسيا إلى غربها . وفى مقدمتهم الملك ركن الدين « طغرلبك » محمد بن مكائيل بن سلجوق ، الذى استطاع أن يهزم السلطان مسعود بن محمود بن سُبكتكين بدنداقان — أومرو — عام ٤٢٨ هـ ، وملك مواضع فيما وراء النهر وخراسان . فعظم شأنه وشأن السلاچقة .

ولما رأى خليفة بغداد القائم العباسى قوة طغرلبك ، راسله ليكون له عوناً على أعدائه من البويهيين وغيرهم . ودخل طغرلبك مدينة بغداد عام ٤٤٧ هـ ووقع العراق فى قبضته وزال منهما حكم آل بويه .

وأصهر طغرلبك إلى القائم العباسى ، فتزوج القائم ابنة أخى طغرلبك ، وتزوج طغرلبك ابنة القائم . — وقيل تبادلا ابنتيهما — وقد قويت بذلك شوكة السلاچقة وظلوا يحكمون بغداد أكثر من مائة عام متتابعين .

ومن أبرز ملوكهم : إلب إرسلان ابن أخى طغرلبك . وملكشاه بن إلب إرسلان ، وبركيارق بن ملكشاه . وتتش بن إلب إرسلان ، وهو الذى ملك دمشق زمناً وكوّن بها سلاچقة الشام .

وانتشر الجنس السچلوقى الحاكم من أواسط آسيا إلى حدود البحر المتوسط فى القرنين الخامس والسادس الهجريين . وانقسم السلاچقة دولا عدة متحاربة . فمنهم من استقل بالعراق وكردستان . ومن ملك بلاد الشام أو بلاد الروم ، أو خوارزم . وامتد ملك أحدهم ، وهو السلطان ملكشاه من الصين إلى الشام وإلى اليمن .

ولبثوا فى قوة ومنعة حتى دبّت بينهم روح التفرق والضعف ، وسال عليهم سيل التتار الجارف من مشارق آسيا ، فاكتسحوا دولهم وممتلكاتهم وهم فى طريقهم إلى بغداد ، وما زالوا بهم حتى شارفوا الشام والجزيرة ومصر .

ولم يأت القرن الثامن الهجرى حتى كان أمر السلاچقة قد اضمحل ولم تبق منهم إلا بقايا يسيرة متفرقة ، من بينها الدولة الأرتقية .

° ° °

والدولة الأرتقية تنسب إلى مؤسسها الأمير « أُرتُق بن أكسك » السلجوقى التركمانى . وقد كان أرتق من مماليك السلطان ملكشاه بن إلب إرسلان السلجوقى ، وبلغ لديه منصب الإمارة ، وأصبح من قادة الجند الممتازين .

وأخذ ملكشاه يستكفيه فى بعض مهامه . ومن ذلك أنه بعثه فى عسكر كثير مدداً لفخر الدولة أبى نصر بن جهير ، الذى كان قد حظى عنده ، حتى عقد له على « ديار بكر » واختاره والياً عليها ، وبعثه على رأس حملة لفتحها والاستيلاء عليها من يد حاكمها حينذاك « مسلم بن قريش » من بنى مروان ، وذلك فى نحو عام ٤٧٦ هـ .

فلما ذهب الأمير أرتق إلى معونة ابن جهير جنح ابن جهير إلى الصلح مع أعدائه ، فى حين أقبل أرتق على قتالهم ، فهزم العرب والأكراد ، وغنم معسكرهم ، ثم عاد إلى الموصل . أما ابن جهير فإنه استطاع فيما بعد أن يستولى على « ديار بكر » فانقرضت منها بذلك دولة بنى مروان . واستولى السلطان ملكشاه فيما بعد على « ديار بكر » من ابن جهير الذى سار بعدُ إلى الموصل وتوفى بها .

ولبث الأمير « أرتق » فى خدمة ملكشاه حتى وقع ما غيرّ خاطره عليه . فخشى « أرتق » على نفسه ، وفرّ لائذاً بأكناف أخيه الملك تتش بن إلب إرسلان ، وهو الذى ملك بلاد الشام ودمشق فى نحو عام ٤٦٨ هـ .

وانتظم « أرتق » فى عداد قادة تتش ، وعاونه معاونة صادقة فى الاستيلاء على أنطاكية وحلب .

ثم عاد « أرتق » معه لما أجفل من حلب خوفاً من قدوم أخيه ملكشاه إليها . ثم ما لبث ملكشاه أن توفى عام ٤٨٥ هـ [1] — أو بعدها بقليل — وتنازع ابناه على ملكه . فانتهز تتش هذه الفرصة واستولى على بلاد كثيرة منها الموصل ونصيبين وديار بكر وغيرها .

وكان تتش قبل ذلك قد بعث أرتق إلى مدينة « بيت المقدس » فملكها له .

---

(١) هذه رواية العبر لابن خلدون . وروى فى « أخبار الدولة السلجوقية » لصدر الدين أبى الحسن أنه توفى عام ٤٨٧ هـ .

وتوفى أرتق عام ٤٨٤هـ تقريباً . وترك ولدين هما الأميران : سقمان وأبلغاى . فملكهما تنش مكان أبيهما . فظلا فى بيت المقدس حتى دهمتهما بها عام ٤٨٩ هـ جيوش مصر الفاطمية بقيادة الملك الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، فحاصرهما زمناً ثم سلّما له المدينة . وأطلقهما الملك الأفضل المذكور هما ومن معهما . فأقام الأمير سقمان بمدينة الرها ، وسار الأمير أبلغاى إلى العراق ، ودخلت بيت المقدس فى حكم مصر .

ثم استطاع أبناء أرتق بقيادة الأمير سقمان أن يمتلكوا أرمينية وأن يستقروا فى ديار بكر وقلعة ماردين [1] . وتتابع أبناء سقمان فى ملك هذه الديار ذائدين عنها منافحين دونها مقاتلين عليها ، حتى كان منهم الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازى ، ثم ابنه العادل ، ثم الصالح بن المنصور . عاشوا كأسلافهم مدافعين عن ملكهم ضد غارات المغول وغيرهم ، مقاومين من يثور عليهم من رعاياهم ومن ينتقض عليهم من القبائل العربية وغيرها .

وقد عاش المنصور والصالح فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن الهجرى . واتصل بهما شاعرنا صفى الدين الحلى اتصالاً وثيقاً ، وعاش فى حاشيتهما زمناً طويلا . وكان له فى دولتهما شأن كبير .

* * *

وبينما كانت بقايا السلاجقة تتراءى فى الجزيرة الفراتية وغيرها ، وكان التتار قد ملكوا أواسط آسيا من الصين إلى حدود الشام وفلسطين ومصر ، ونازعوا بقايا السلاجقة على ممتلكاتهم ، إذ كانت دولة بنى أيوب فى مصر قد زالت معالمها ، وانتزع الملك منهم أرقاؤهم المماليك ، وبسطوا سلطانهم على مصر والشام وحلب والحجاز منذ عام ٦٤٨ هـ . وبذلك توحدت هذه البلاد العربية .

واشتهر من سلاطين المماليك نفر عرفوا بالحزم والمضاء وجلائل الأعمال والمدافعة عن الدين وبلاد المسلمين كالمظفر قطز ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وابنه الناصر محمد .

---

(١) ماردين بكسر الراء والدال .

وفى عصر الناصر بن قلاوون زار صفى الدين الحلّى البلاد المصرية عام ٧٢٣هـ — أو ٧٢٦ هـ — واتصل به ومدحه ونال من عطائه . واتصل كذلك برجال دولته . وكان لذلك أثر فى أدبه .

وأخذ التتار ينازعون المماليك على ممتلكاتهم ، فغزوا بلاد الشام وفلسطين ، وطمعوا فى امتلاك مصر نفسها ، ولكن المماليك كافحوهم مكافحة شديدة وردّوهم على أعقابهم . وظلت الحرب سجالاً بين الفريقين زمناً طويلاً ، تفرق التتار خلاله دولا عدة متنازعة .

وكانت البلاد المصرية حينذاك وتوابعها مقسمة من الناحية الإدارية عدة أقسام ، يطلق على كل منها « نيابة » ، يحكمها « نائب » يعينه السلطان .

وكانت مدينة « حماة » إحدى هذه النيابات . وتقع حماة بين حلب وحمص . وكانت إذ ذاك آهلة بأسباب العمران واسعة التجارة . وكان يحكمها من قبلُ ملوك من فروع الأيوبيين . فلما دخلت فى حوزة سلاطين المماليك المصريين ، ولّوا عليها أمراء من قِبَلهم نوّاباً عنهم .

ورأى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يسند نيابتها إلى أبى الفداء إسماعيل ، وهو أحد أمراء الأيوبيين وسليل ملوك حماة الذين كانوا يحكمونها من قبل . وكان بينه وبين الناصر صداقة ومودة . فمنحه الناصر لقب ملك تكريماً له وتعظيماً وتمييزاً له عن سائر نواب الدولة . وجعل له اختصاص الملوك فى التصرف والمخاطبات . فعظمت بذلك منزلته ، وتلقب بالملك المؤيد .

ومات المؤيد عام ٧٣٢ هـ فولى الناصر مكانه ابنه الملك الأفضل بعد قليل .

وقد كان المؤيد ذا مزايا ومواهب عظيمة . لقد كان محبًّا للناصر بن قلاوون مخلصاً له . وكان حازماً ذا دهاء . وكان عالماً شاعراً مؤلفاً . ألّف كتابه المشهور « المختصر فى تاريخ البشر » ويعرف بتاريخ أبى الفداء وهو من المراجع الهامة فى موضوعه . وله أيضاً « تقويم البلدان » وغيرهما .

وكان محبًّا للعلماء والأدباء والشعراء ، يحتاز بعضهم فى حاشيته ، ويبجلهم ويجزل لهم العطاء فأعاد بذلك شيئاً من سيرة الملوك الصيد . ووفد عليه العلماء

والشعراء وأقاموا ببابه أياماً طويلة . وممن وفد عليه شاعر مصر فى زمانه جمال الدين ابن نباتة المصرى ، وصفى الدين الحلى .

٢ ـ الحياة العقلية

كانت العناصر العربية فيما عدا مصر والشام وجزيرة الفرات ، تعيش وبجوارها العناصر التركية والكردية والسلجوقية . ويدين الجميع بالإسلام ، ويتحدثون بلغاتهم الوطنية التى غلبت ـ أو كادت تغلب ـ العناصر العربية على لغتها .

أما التتار فقد كانوا فى مبدأ أمرهم وثنيين سفاكين للدماء محبين للسيطرة والاستبداد . ولذلك أذاقوا ملوك المسلمين وشعوبهم ألواناً من الفتك والعذاب ، وألحقوا بديارهم الدمار والخراب . ومن ذلك ما صنعوه فى خوارزم ، وما اجترحوه فى العراق وبغداد ، وما اقترفوه من بعد ذلك فى دمشق ومدن الشام .

ومن أشنع ما ارتكبوه ، قتل العلماء وإبادة الكتب والأسفار الثمينة . ومن ثم لم يقبلوا على تشجيع علماء الدين ولا أدباء العربية إلا بالمقدار اليسير الذى تستفيده منهم دولهم . وغلبت لغاتهم على العربية فى التخاطب بها .

غير أنهم بعد أكثر من نصف قرن ، وفى نحو أوائل القرن الثامن الهجرى ، دخل كثير منهم الإسلام . فشرع ملوكهم يشجعون علماء الدين واللغة ، ويعاونون من نحا منهم نحو الفلسفة وعلوم الحكمة والمنطق والفلك وأشباهها كالبلاغة والنحو . ويرون فيهم دعامة لسلطانهم ، أو زينة تتجمل بها دولتهم . لهذا ظهر بأوطانهم بعض العلماء الذين زاولوا التأليف أو التعليم ، وأغلبهم من الأعاجم . فلما تصدى هؤلاء للتأليف بالعربية غلبت على عباراتهم النزعةُ المنطقية والتحديدات العلمية الدقيقة الخشنة التى غاضت منها بشاشة الأدب . لهذا امتلأت بالغموضة والإلغاز .

ومن العلماء الناشئين فى دول التتار : نصير الدين الطوسى ، وقطب الدين

الشيرازى ، وأبو عبد الله بن آجروم ، وسعد الدين التفتازانى ورضى الدين الاسترابادى .

* * *

أما الأتراك والسلاچقة والأكراد ، فقد كانوا ، بصفة عامة ، مسلمين منذ نشوئهم فى الدولة العباسية بل قبيل استيلاء ملوكهم على أطرافها وزحفهم إلى قلبها وتسلمهم زمام السلطة فيها ، أو استقلالهم عنها . فمن استولى عليها : البويهيون والسلاچقة ، ومن استقل عنها الأيوبيون فى مصر والشام .

وقد كان لهم استمساك بلغاتهم فى التخاطب فبعثت بينهم مشوبة بالعربية . غير أنهم لم يستمسكوا بها فى النهوض بعلوم الدين وآدابه ، وهم يعرفونها أضعف فى هذا المجال من العربية التى مرنت على مثل هذه النهوض . وكان لا بد لهم ، بدافع من الدين ، أن يعاونوا رجال لغته للقيام بأعباء علومه وآدابه . ولهذا نشطت هذه العلوم والآداب فى كنفهم إلى حد محمود . واصطنعوا فى دواوينهم منشئين يدبجون رسائلهم بالعربية التى لها خبرة سابقة بمراسيم الكتابة الديوانية وأحكامها . وكذلك استمعوا لكثير من شعراء العربية وأثابوهم وأجزلوا لهم العطاء . فامتلأ العصر العباسى الثانى بعشرات من الشعراء والمنشئين .

وما زال الأمر كذلك حتى دهمهم جميعاً سيل المغول فغير من وجه التاريخ . وأخذ هذا المعين الثر ينضب ، وهذا الفيض الغزير يجف — فيما عدا مصر والشام — وبقيت منه ذماء فى الجزيرة الفراتية وأرمينية حيث تكثر السلالات العربية وحيث يحكم بقايا السلاچقة كملوك الدولة الأرتقية التى عاش فيها صفى الدين ردحاً من الزمان ، وحيث بقيت لبعض القبائل العربية ألوان من الجاه والنفوذ والولاية كآل أبى فضل وسنبس .

ومن الشعراء الذين ظهروا فى تلك الآونة الأخيرة : شهاب الدين التلعفرى وعلاء الدين المارديني ونظام الدين الأصفهانى ثم صفى الدين الحلى .

* * *

أما المباءة الرحبة والكنف الخصيب الذى لجأت إليه علوم الدين وآداب العربية ، فمصر والشام، حيث يحكم سلاطين المماليك الأتراك . هؤلاء السلاطين الذين شعروا منذ تسلمهم زمام الحكم أنهم أقوى ملوك المسلمين على الأرض وأن التاريخ حمّلهم أمانة الدفاع عن حمى الإسلام ، والذود عن بلاد المسلمين ، فعاشوا مكافحين كل باغ عليهما معتد ، سواء أجاء من الشرق كالتتار ، أم جاء من الغرب كالصليبيين . وملأتهم الحمية الإسلامية والعصبية الدينية ، فكان لذلك دخل كبير فى استسلامهم للغة العرب التى هى لغة الدين الذى يتعصبون له ، ولغة الرعايا التى يذودون عنها .

وقد كان المماليك أعاجم عن العربية بفطرتهم ، ولكن منهم من تعلمها أو اصطنعها بدافع الإقامة والاحتياج . ولما رأوا ضعف لغتهم التركية عن النهوض بأعباء الحكم اتخذوا نبغاء العربية كتاباً لهم ومنشئين فى دواوينهم لكى يدبجوا لهم رسائلهم ومنشوراتهم ومراسيمهم وتقاليدهم وبشاراتهم [١] وما إلى ذلك من ألوان الرسائل الديوانية .

ولم يكتفوا بذلك بل أغدقوا على رؤساء الكتّاب المال والجاه ، بل سلموا إلى بعضهم شئون الدولة جميعها ، فكانوا المقدمين فى كل أمر ، المستشارين فى كل مسألة ، حتى غدوا الحكام الحقيقيين فى البلاد ، وإن كان نفوذهم مستمداً من نفوذ السلطان . فكان ذلك سبباً فى إجادة الكتابة والإنشاء ، وفى تتابع طبقات من المنشئين الأفذاذ على مدى العصر ، وكثرة نتاجهم داخل الديوان وخارجه .

أما الشعر فلم يحفل المماليك به كثيراً ، ولا اهتموا له اهتمامهم بعلوم الدين والكتابة، لضعف فهمهم له وقلة حاجتهم إليه . ولم تكن لهم سياسة مرسومة فى تشجيع الشعراء . اللهم إلا ما أثر عنهم من بعض وقائع التشجيع ، ولكنها وقائع فردية لا قياس عليها . ومنها احتفال الناصر بن قلاوون بصفى الدين الحلى ، وكذلك اهتمام الملك المؤيد صاحب حماة بصفى الدين أيضاً وبالجمال بن نباتة

---

(١) هذه أسماء بعض الرسائل الديوانية الرسمية . راجع المجلد الخامس من عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم .

المصرى . وتقريب الناصر حسن بن الناصر محمد لابن أبى حجلة المغربى .

كانت هذه الظروف المحيطة بالشعراء جديرة بالقضاء على الشعر فى هذه الحقبة . ولكن الشعراء لم يستسلموا لقضائهم وقدرهم ، فعالجوا أدواءهم معالجة تستحق الحمد والثناء . فلم تصرفهم عجمة السلاطين ، ولا أيأسهم عدمُ استجابة الجماهير لهم ، ولا عاقتهم حاجتهم إلى الكدح فى سبيل العيش ، عن أن ينظموا .

لقد دفعتهم إلى ذلك عوامل ، منها : فنيتهم الشاعرة ومنها علاقاتهم الشخصية وصداقاتهم ومنافساتهم الأدبية ، اتخذوا من هذه وتلك تكأة يستندون إليها ، ووسيلة يتوسلون بها إلى نظم الشعر . . . إلى غير ذلك من العوامل التى أذكت بينهم جذوة الشعر وجعلته رابطة تربط بينهم وألفة جامعة تجمع شتاتهم . ولذلك نظموا فأبدعوا ، وأكثروا وأطابوا . وتناولوا أغراضاً شعرية لا عدد لها ، نظموا فى كل واحد منها القصائد والمقطعات . فقالوا فى المديح النبوى والمدح والوصف والغزل والخمريات والمجونيات والإخوانيات والنقد الاجتماعى والألغاز والأحاجى ، وسجلوا الحوادث ونظموا العلوم والفنون وابتكروا البديعيات . وطارحوا وساءلوا وعارضوا ووشحوا إلى غير ذلك .

وينبغى لنا هنا أن نشير إلى أمرين :

الأول : أن الثقافة المصرية التى رسمنا هنا خطوطها الرئيسية ، كانت لها السيادة إلى حد كبير فى الأصقاع الإسلامية الأخرى . وذلك لأن القاهرة صارت قلباً للعالم الإسلامى بعد سقوط بغداد فى يد التتار . وصارت محوراً للعلوم والآداب الإسلامية ، وصارت مثابة آمنة لطلاب العلم والأدب من بلاد المسلمين كافة . فكانوا يفدون إليها من كل حدب وصوب .

الثانى : أن النهج الأسلوبى السائد حينذاك فى الشعر والنثر كان النهج الفاضلى الذى يدور حول اصطناع البديع بالتزام السجع والجناس والطباق والإكثار من التورية والاستخدام والتلميح إلى الحوادث والوقائع الشهيرة وحل المنظوم واقتباس الآيات وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال والإمعان فى التشبيه والاستعارة إلى غير ذلك .

وقد تعصب أدباء مصر والشام لهذا النهج وزادوا عليه قيوداً ، واستحسنوا التورية والاستخدام . ومنهم من أغرم بالجناس ، ومنهم من حمل عليه إلا إذا أخرج مخرج التورية . وعلى الجملة ، كان لهم ذوق فى اصطناع هذه الألوان ، ومقدرة على إجادتها .

٣ ــ الحياة الاجتماعية

هذا عصر تفلّت فيه الحكم والسلطان من يد الجنس العربى فى بلاده وغير بلاده . وأصبحت مقاليد الأمور فى يد الأتراك وبقايا السلاجقة والأكراد والتتار ، بل الصليبيين . وأصبحت الشعوب التى تسكن مصر والشام والعراق وجزيرة الفرات وأرمينية ، مزيجاً من هذه السلالات المتنافرة منها ومن الجنس العربى ، عدا متناثرات من اليهود والنصارى والعجم .

ولم تستطع التركية أن تُترّك الشعب العربى فى مصر والشام كما تركته فى غيرهما . وإن لم تخلوَا من تأثيرها جملة . وذلك لكثرة العناصر العربية وغلبتها فى هذين المصرين عنها فى غيرهما ، على الرغم من الامتزاج والتجاور والتصاهر .

أمّا والحكم والسلطان قد كانا فى يد غير العرب فلا غرابة أن كانوا محرومين أرضهم الزراعية وخيراتهم الكثيرة وأموالهم الوافرة . ولا غرابة أن أصبح حكامُهم حاكمين بأمرهم يمثلون الاستبداد والسيطرة فى صورة بشعة من صورها ، ومظهر غاشم من مظاهره .

كان الحاكم أو السلطان هو محور الدولة الذى تدور عليه ، ومنْ عداه فيها تبع له . فهو يملك الأرض ويوزع الإقطاع ، ويهب المناصب ، وينقل الموظفين ، ويختار الجيوش ، ويربى الجنود ، ويعلن الحرب ، ويستأثر بالغنيمة ، إلى غير ذلك .

ويعاون السلطان ــ فيما عدا مناصب القضاء والكتابة ــ أمراؤه وجنوده وهم من جنسه . أما الجنس العربى فقد حُرم الالتحاق بالجندية فقد زعموا له أنه لا يصلح لها وحرّموا عليه ممارستها .

وكان حسْبُ الأغلبية العظمى منه أن يعيش الفردُ فيه عبداً لسلطان أو أمير يفلح أرضه ، أو أجيراً عند أحد الأعيان يخدم مصالحه ، أو نحو ذلك من المهن الدنيا .

لهذا كان الشعب العربى يعانى ذل الحياة وضيمها ، وشظف العيش وألم اليأس والاستسلام ، ومضاضة الرضا لمشيئة الزمان . نشأ ذلك من الوضع السياسى والاجتماعى ، فقد خضع الشعب لحكامه — أو أخضعوه — لما استبدوا به من أسباب القوة والقهر ، ولما استأثروا به وبهروا الأنظار ، من الذود عن الدين والمسلمين . فلم تكن نقمته وثوراته ومكافحاته تتجه — أكثر ما تتجه — إلا إلى طغيان غير المسلمين عليهم كالتتار والصليبيين . وإن حماسته فى وجه الصليبيين كانت مثلاً رائعاً من أمثلة الكرامة والنخوة والإباء .

أما بالنسبة لحكامة المسلمين فقد عانى — للأسباب السالفة — حياة الكبت ، على الثورة عليهم ، وتكلف مظهر التبجيل لهم بدلاً من الانتقاض . وقد استقرت بسبب ذلك فى نفسه وفى ضميره شكاية مرة ، وتوجع أليم من نكد حظه ونحس طالعه . ولونت هذه الحالة النفسية شعر العصر فى جملة ألوانه .

وكان الشعب فى مصر مقسماً ست طبقات — عدا الطبقة الحاكمة — وهى على التوالى : « أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة . والباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البز » ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف . والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة . وأرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن . وذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »[1] .

ونعتقد أن هذه الطبقات أو ما يقاربها كانت توجد فى غير مصر من الأمصار الإسلامية ، لأن روح الحكم ونظم الإدارة فيها تكاد تكون متماثلة .

وتنعم الطبقة الحاكمة ومن يتصل بها من كبار موظفى الدولة ، برغد العيش

---

(١) هذه رواية المقريزى فى كتابه « إغاثة الأمة » .

وخفض الحياة والرفاهية ، على حساب هذه الطبقات الكادحة المرهقة — إلى جانب ما تعانيه — بما يفرض عليها من الضرائب الباهظة والغرامات الظالمة والمصادرات المستمرة .

هذا ، وفى بيوت الحكام والأعيان يكثر الرقيق من غلمان وجوار ، للخدمة والتمتع . وقد راجت أسواق الرقيق فى هذا العصر رواجاً عظيماً لكثرة ما ابتليت به بلاد غرب آسيا وأواسطها من حروب وتقتيل وتشتيت .

أما أغلب الطبقات الأخرى فهى لاجَّة فى عُدمها واحتياجها غارقة فى قلقها ، شاكية متهالكة على مباذلها . وقد راجت بينها ألوان من الفسق والفجور حتى اضطر بعض السلاطين أن يبطش بأهلها وينكل بهم ويكسر جرارهم ويقفل حاناتهم .

وكان لهذه الحالة الاجتماعية رجع بعيد فى شعر الشعراء بل فى زجل الزجالين ونثر الناثرين ، فقد تغزلوا فى النساء ، ووصفوا الجوارى والغلمان وشببوا بالخمور والقيان ، وذكروا الأعواد والألحان . ولشعر صفى الدين الحلى نصيب من ذلك وافر .

وإلى جانب هذا الفساد شاعت الرشوة وفشت فشواً غريباً حتى صارت تقليداً متبعاً فى الوصول إلى كبير المناصب ، ومنها القضاء . والغريب أن بعض الأمراء كانوا يتوسطون إلى بعض السلاطين لطالب الوظيفة ، ويساومونهم على مقدار الرشوة ويقتسمونه فيما بينهم . وكان لذلك دخل كبير فى فساد الوظائف وأهلها وبخاصة وظائف القضاء . ولهذا كثرت الرشا والاختلاسات بين موظفى الدولة ، وكثرت محاسبات السلاطين لهم .